

المكان والاجتماع المدائني بيروت تحليل وتركيب سوسولوجي وصفي

محمد البسيما

هذه محاولة جزئية تجريبية، تقوم على التعرف على «نصوص» تنقل معاشاً إجتماعياً محلياً، لم يفقد حيويته وغزارته والتصاقه بزمن عيش إجتماعي لم تحوله الصياغات النظرية - المنهجية - المفاهيمية إلى نص سوسولوجي أو سياسي أو ثقافي مجرد، محكم ومفبرك ومنته.

ما تقوم به هذه المحاولة الجزئية التجريبية، هو استخدام محور محدّد من كتابات سلام الراسي. محور إلى جانب محاور أخرى متنوعة، أنجزنا بعضاً منها في سياق تركيب «رواية سوسولوجية وصفية» معاشة لجوانب من حياة تجمعات الكيان اللبناني، اعتماداً على «روايات» الراسي وما يحاذيها من كتابات ومرويات، يُفترض أنها تقول عناصر من معاش هذه التجمعات المحلية وذاكراتها الإجتماعية.

وقبل أن نتبع عناصر هذا المحور الجزئي - «تحول علاقات المكان المديني» - رأينا أن نعرض لمسألتين منهجيتين. أولها تركيب الرواية في كتابات سلام الراسي، ثم موقع الراوي نفسه في تركيب هذه الروايات.

● **تركيب الرواية:** غالباً ما تبدأ روايات سلام الراسي من التقاط حدث وافد على زمن عيش دوائر إجتماعية، لتقوم عناصر الرواية على عرض ومتابعة وتقديم عناصر محددة من وقع هذا الحدث وفعله، في زمن عيش تلك الدوائر الإجتماعية. كان زمن عيش هذه الأخيرة ونسيج علاقاتها الداخلية لا ينكشفان إلا إذا حرّك الحدث الخارجي الوافد خيوطها (الدوائر). عندئذ فقط، تبرز كيفية انعقاد عناصر تلك الدوائر الإجتماعية وتحولاتها، فتبرز مواقف وشخصيات وأدوار تبدو وكأنها كانت راسبة أو راكدة أو ثابتة. كأن زمن تلك الدوائر الإجتماعية كان يجري متآلفاً ومتساقاً ومتناغماً، لا أثر فيه لحركة. وكأن لا زمن إجتماعياً أصلاً.

وماذا كان يحدث قبل وفود الحدث الخارجي، وكيف كان يسير الزمن الإجتماعي والعلاقات الإجتماعية، إذا

لم يفد هذا الحدث ١٩

روايات الراسي لا تبدأ أصلاً إلاّ متمحورة حول الحدث، لتعرض إيقاع الزمن الاجتماعي وحركته وسيروته وأدواره ومواقفه في ظل وقوعه: (وصول ابراهيم باشا إلى بيروت، بناء الجامعة الأميركية، دخول المدارس إلى حياة التجمعات الأهلية، دخول الفرنسيين إلى لبنان، ثورة فيصل، عودة مهاجر، نزوح عائلة أو زعيم أو تهجرها أو قتلها، مجيء موظف إلى دولة، وصول زعيم إلى منطقة... إلخ).

إذن لا رواية بدون حدث، كبير أو صغير، جزئي أو عام، يطل دائرة إجتماعية واسعة أو ضيقة... إذ بإمكاننا معاناة الحدث الوافد في كل رواية من روايات الراسي، وبإمكاننا القول إنه نادراً ما يغيب. وفي قليل من الروايات - إذا كان الإستهلال بحدث بحاجة إلى مقدمات توضيحية - فإن الراسي يبدأ روايته ببعض الإشارات التوضيحية التمهيدية، ثم ينسب هذه الإشارات إلى مرجع عام متعارف ومتداول، فقط من أجل التهيؤ إلى الإفصاح عن الحدث المرتقب. أي إن الإشارات التمهيدية التوضيحية التقديمية لا تُستدعى أصلاً إلا كهامش عامة، بانتظار الحدث الفعلي. أي أنها (الإشارات) عناصر من ديكور المسرح الحدتي، الذي لولاه لكانت كتابات الراسي ورواياته عبارة عن مجموعة من هوامش بديهية عامة ونافلة.

ولكن كيف يركّب الراسي روايته، كيف يستدعي عناصرها، انطلاقاً من وفادة الحدث؟

قبل كل شيء هنالك زمن إجتماعي مفترض، قبل وقوع الحدث. زمن آمن وراكد وغير مصرّح به ولا بعناصره ولا بعلاقاته. إنه معطى بديهي، ولكنه مضمّر في ظل التركيب الروائي. وهو - بركوده وأمنه - الذي يعطي المعنى والقصد لعناصر الرواية وتفصيلاتها. وما إن يشرع ذلك الزمن الاجتماعي باستقبال الحدث الوافد عليه، حتى يتمركز حوله وتنشد خيوطه إلى بؤرة محورها الحدث نفسه... هنا، يتشكّل مسرح بأدواره ولغاته وشخصه وديكوره، لبيد العرض الروائي الذي هو تركيب الرواية. أما عناصر هذا التركيب فهي عناصر من اجتماع محلي مُعاش، تعرّضت للخلل من جرّاء وفود الحدث الخارجي. وهذه العناصر لا يمكن عرضها وتسميتها ومقاربتها إلاّ على المسرح، الذي بطله الحدث نفسه ومخرجه الراوي.

هنا يستدعي الراوي المفارقات الإجتماعية والسياسية والثقافية والانثروبولوجية، بتفاصيل عناصرها المعاشة، ويركبها في شخصيات تؤدي في تناغمها أدواراً، تشير إلى خلل مركزي بوفود الحدث. هذه الشخصيات، وهي تؤدي أدوارها، يكون مرجعها مراتب وأدوار وقيم وانتهاءات محلية متنوعة. ولكن رغم تنوعها، غالباً ما تلتقي، على اعتبار الحدث دخيلاً ووافداً. إلاّ أن هذا الالتقاء، الذي هو عنصر من عناصر التأليف الروائي، غالباً ما يفصح عن تبني بعض الشخصيات والأدوار والمراتب لوجهة الحدث وسيروته ومآله. ما يشير إلى أن هذه الشخصيات والأدوار والمراتب قد تشكّلت في سياق وفود الحدث نفسه، أو أن وفادته ليست إلا نتيجة لذلك التبني.

المسرح الروائي عند الراسي، هو أصلاً تعليق للزمن الاجتماعي المفترض. ذلك لأنه يقوم على لحظة حديثة. وهو تعليق للزمن، لافتراض زمن مضمّر سابق غير مصرّح به. زمن بديهي بدون سيرورة وتحولات، لا نعرف وجهته وعناصره. ويأتي الحدث والرواية والمسرح بأدواره وشخصياته لتأكيد تعليق ذلك الزمن الذي كانت سيرورته مضمّرة. ليست الأحداث تحولات في سيرورة وسياق، بل هي قطع أو تعليق لذلك السياق المفترض والذي لا نعرفه أصلاً.

ما هو ذلك السياق المفترض؟ إنه زمن عيش اجتماعي محلي أهلي. وما هي عناصره؟ لا تفصح الروايات عن هذه العناصر إلا بمواجهة الحدث الوافد... هذا ما نقدمه في هذه المحاولة الجزئية... باستخراج بعض هذه العناصر وموضعها في «نص سوسيولوجي وصفي» لصيق بالمادة الروائية لسلام الراسي.

يمكننا أن نستنتج، في هذه العجالة التقديمية، أن تركيب الرواية عند الراسي يحمل في طيّاته غياب ما يمكن تسميته بـ «الانصهار المجتمعي» لكتل وتجمعات وطوائف ومناطق... «المجتمع اللبناني». فما البدء بالرواية من لحظة الحدث الوافد، من لحظة تعليق زمن اجتماعي مفترض، إلّا دلالة عميقة على غياب ذلك الانصهار المجتمعي. وما موقع الراوي - الذي سوف نشير إليه الآن - إلّا دلالة على ذلك أيضاً.

● **موقع الراوي:** من خلال علامات وملامح سريعة، تمر في سياق أعماله الكاملة، يمكن القول: إن سلام الراسي، المولود في بلدة إبل السقي - الجنوب، قضاء مرجعيون حاصبيا - من عائلة بروتستنتية، الموظف في «مصلحة التعمير»، والمنتسب من بعيد إلى الحزب الشيوعي اللبناني في فترة ماضية، والمحال على التقاعد، والذي يتقن لغة أجنبية - الفرنسية ربما -، والذي تم بعض المراجع التي يذكرها في كتاباته أنه يقرأ ما له صلة بتاريخ محلي: مذكرات لشخصيات إجتماعية وسياسية محلية، ومذكرات لبعض المبشرين والمستشرقين الأجانب... والذي على صلة وثيقة بناس تجمعات أهلية من موقع موظف، يحافظ على انتسابه إلى علاقات أهلية ومحلية وبلدية، والذي على صلة بشخصيات تشغل مراكز في الإدارة اللبنانية... من خلال هذه العلامات - الملامح، يمكننا أن نستشف أن سلام الراسي، بتكوّنه الثقافي - الاجتماعي المعاش، هو حصيلة تركيب عنصرين أنثروبولوجيين ثقافيين في مرحلة إجتماعية - تاريخية معيّنة.

العنصر الأول، مرجعه مسيحي عام. والثاني، مرجعه درزي عام أيضاً. والمرحلة الإجتماعية - التاريخية المعيّنة، هي التي بدأ فيها فعلياً تركيب صيغة الكيان اللبناني، مع انهيار الدولة العثمانية وانحسارها عن المشرق بدخول الفرنسيين، وامتداداً حتى قيام الدولة اللبنانية وأدوارها المتحولة.

حدود العنصر الأول (المسيحي) وتجلياته تتبدى من خلال الانخراط في أدوار إجتماعية، لها وجهة وسيرورة

ومآل تشكل دولة ومجتمع لبنانيين. وذلك ما يمكن تتبع عناصره من انخراط في أدوار محددة: وظيفة، حزب، صلات مع أدوار ومواقع في الإدارة اللبنانية... ذلك دون الإنسلاخ عن ذاكرة تكوّن أهلي محلي.

حدود العنصر الثاني (الدرزي) وتجلياته، هو التعبير والقول وطريقة الروي وإخراج محتويات الذاكرة وتأويل قيمها. ما يشير إلى عناصر من معاش ثقافة إجتماعية درزية.

أمّا عمومية هذين العنصرين - وهي التي تتيح لهما التدامج والتعايش - فيمكن ملاحظتها من ابتعاد الراسي مسافة معينة عن الانغراس الكامل والثابت في إحدى دوائر التجمّعين المذكورين إجتماعياً وثقافياً وسياسياً. أي أنه ابن ذلك الحيز الإجتماعي المشترك، الذي يلتقي فيه التجمّعين، والذي هو وليد احتكاكها وصراعها وتعايشها. والراسي، بهذا المعنى، ليس درزياً صافياً ولا مسيحياً صافياً. ذلك رغم أن مسيحيتته هي التي توفّر له الانخراط في سيورة ومآل تشكل دولة ومجتمع لبنانيين، بينما تتجلّى درزيته على صعيد التقاليد الإجتماعية والثقافية المحلية، ومن خلال القيم التي تنقلها مروياته. القيم التي تمّ عن «عراقة تقاليد درزية، قديمة.

بتألف هذين العنصرين اللذين تداجعا بعد أن تخلّيا عن صفاتها، بتألفها في سياق المرحلة المذكورة، يمكن القول إن سلام الراسي هو ابن أنثروبولوجيا التجمّعين الدرزي والمسيحي، اللذين صاغ تناحرهما ركائز فعلية محلية لقيام لبنان الحديث. ويؤكد ذلك غياب مرجع شيعي من روايات الراسي - مع أن الراسي يدعي أن مرجع مروياته هو الجنوب اللبناني - وهامشية مرجع سني مديني، يعتمد على مذكرات هنري غيز، بشكل أساسي، لنقل محطات من معاشه الإجتماعي. أي أن المرجعين الأخيرين: السني والشيعي، لا يكون حضورهما إلّا بمقدار صلتها بتشكيل الكيان اللبناني. ذلك رغم دخول التجمّع السني المديني - خاصة في مرحلة الاستقلال - عنصراً أساسياً فاعلاً في صياغة التوازن اللبناني، إلّا أن هذا الدخول كما تراه ذاكرة مسيحية درزية - تعود بنسبها إلى الريف أكثر من عودتها إلى المدينة - يبقى غير مُدرك.

وما يؤكد أيضاً نسب الراسي الأنثروبولوجي الإجتماعي هذا، هو النقلة الدائمة في رواياته إلى الجبل الدرزي - المسيحي، رغم أن مسرح هذه الروايات المفترض هو الجنوب اللبناني. أما أثر العنصر البروتستنتي، فيتحدّد أولاً بالانتساب إلى مسيحية عامة وغير محددة، وثانياً من خلال تدامج العنصرين الأولين وترباطهما وتألفهما. إذ إن الإنتماء البروتستنتي - لأسباب سببتيها في هذه المحاولة عند الحديث عن دخول الجامعة الأميركية إلى مدينة بيروت - ينزع عن الإنتماء الطائفي حدته وصفاءه.

النتلة الدائمة إلى عناصر من معاش الجبل الدرزي - الماروني، عنصر رئيس في روايات الراسي. هذه النتلة، تفترض فيها تفترضه، أن لبنان بدأ من هناك، من الجبل... هكذا دائماً تفترض ذاكرة ريفية أو قروية جبلية،

بعيدة عن التكوين المدني الفعلي، بقدر ما هي قريبة من المراجع الأهلية المحلية للتجمعات اللبنانية.



(وزارات) مع المؤسسات المحلية (البلديات)، اضطلاعها بتملك الحيز المكاني، الذي كانت التجمعات سابقاً تقيم فيه علاقات من نوع خاص، في سياق اجتماعها المحلي.

الأحداث الثلاثة تلتقي في ظروف عامة: بداية انهيار السلطنة العثمانية، وبداية اختراق الغرب لعناصر الاجتماع المحلية الداخلية وبداية دخول الدولة الحديثة. إلا أننا حاولنا دائماً أن نتبع هذه المتغيرات تفصيلاً، كما ترونها وتعبّر عنها «ذاكرة» السكان أنفسهم، دون أن نفزع إلى الأفق العام أو الظرف العام، إلا عندما رأينا مناسبة وحاجة لذلك. لأننا لسنا في صدد كتابة تاريخ اجتماعي - سياسي «للمدينة»، بقدر ما نلمح على تتبع صور معاش اجتماعي - ثقافي، وشذرات أحداث تفصيلية كما تقدمها ذاكرة تنتقل مشافهة (وربما غشيها الزمن والنسيان، وربما أعيدت صياغتها) بين الأمكنة والأجيال والزمن. وقبل أن نبدأ بالأحداث المذكورة، فإننا نستنسب البدء برواية، نقدر أنها تساعدنا على رسم صورة تقريبية «للعلاقات المكان، البيروتي، بداية القرن التاسع عشر.

١ - المدينة: أحياء مسورة

يروى الراسي أن بدوياً دخل أحد مطاعم المدينة، ظاناً أنه مضافة لأحد زعمائها المحليين... وعندما هم بالخروج، استهجن البدوي مطالبة صاحب المطعم له بدفع ثمن الوجبة، فتمترّض إثر ذلك لعقوبة «الجرسة والتطويق»، راكباً، بالمقلوب، على حمار طاف به شوارع المدينة، يتقدمه أحد الطبالين... فاعتبر البدوي أن أهل المدينة إنما يتابعون مراسم تكريمه على طريقتهم الخاصة^(١).

التطويق والتجريس هما إحالة «المذنب» رمزياً إلى

يتبع تتبع عناصر من «علاقات المكان» في بيروت، التعرف على حيز لا بأس به من «الاجتماع البيروتي» لا سيما المدني عموماً. إلا أن هذه العناصر لا تبرز جلية، ولا تتخذ معناها الاجتماعي - السياسي إلا بمواجهة أحداث طارئة، تعمل على خرق أو اختراق الإطار التجمعي للسكان، الذين غالباً ما يستقبلون هذه الأحداث بوصفها عاملاً في اختلال علاقتهم بالمكان الذي ينتظم في داخله زمنهم واجتماعهم وتراثهم...

كمنافذ، رأينا أن نعرض لثلاثة أحداث، تبرزها كتابات الراسي: أولها، دخول إبراهيم باشا مدينة بيروت. وثانيها، دخول الجامعة الأميركية. وأخيراً تنازع التجمعات المدنية (بيروت، صيدا، مرجعيون) مع إدارات ومؤسسات الدولة «الحديثة»، على حيازة المكان.

● في الحدث الأول، تتداخل عدة عناصر تستعيد مسائل اجتماعية - سياسية عامة: (احتكاك التجمع البيروتي بتجمع الجبل الماروني - الدرزي، بداية تشكل ما يسمى بالغلبة المارونية لاحقاً، من جراء إلحاق بيروت بإمارة الجبل، وفي إطار التغلغل الغربي...)، إلا أننا حاولنا أن نتبع هذه المسائل كما تقدمها رواية الراسي، ومن خلال علاقات المكان التي تحمل في ثناياها طابع الاجتماع البيروتي وعناصر مواجهته للحدث.

● أما الحدث الثاني (دخول الجامعة الأميركية)، فيشير إلى كيفية استقبال التجمع المذكور مؤسسة حديثة وافدة، ومن ثم مراحل احتكاكها التي سوف تؤدي إلى انخراط بعض فئاته (التجمع) في علاقات هذه المؤسسة الوافدة.

● وأخيراً الحدث الثالث، الذي يشير إلى تبدل علاقات الحيز المكاني بعد اضطلاع مؤسسات الدولة المركزية

الفعل الذي يؤديه الجرس حين قرعه . وهو فعل انتشار الصوت وتعميمه في حيز مكاني . وهذا ما يفترض أن الانتساب إلى دائرة سكنية ما ، من دوائر سكن المدينة ، يشترط الاشتراك في إشاعة الهدوء و«الأمان» وكلمة الأمان بين مزدوجين لأنها مستعارة من المثل البيروتي : « جارك أمان دارك أمان »^(٢) ، أي أن الأمن والأمان والهدوء هي من صفات الحي السكني ، وما خرقها إلا عنصر أولي من عناصر التجريس .

انتقال الأصوات والأحاديث ، إذن ، إلى الخارج (خارج حدود الإقامة العائلية) ، يحمل إمكانية التجريس ، وفي حرج بيروت ، حيث كانت تلتقي العائلات البيروتية للنزهة والاستجمام ، أيام العطلة ، كانت تعم الأحاديث التي تستعيد أخبار بنات العائلات ، فتلوك الألسن سمعتهن ، إذا ما شوهدت إحداهن مرة وحدها منتقلة بين الأحياء والمحلات ، أي خارج الحي الذي تقيم فيه العائلة وتشارك في صياغة علاقات المكان ودوائره المحلية^(٣) .

ويتحدث لويس لورنتس عن نوعين من الأحياء في بيروت : أحياء قديمة وأخرى جديدة . تشي صورة الأولى بعناصر مدينية إسلامية قديمة ، حيث « الاتفاق هو المهندس الوحيد ، الذي يهندس البيوت وطرق المواصلات » . بينما تأتي صورة الأحياء الجديدة لتذكر بعناصر مستحدثة : « جدران البيوت مدهونة من الخارج بالأصفر الفاقع . الانتظام الذي يدع مجالاً لمرور الهواء . الماء البارد والعذب الموزع في كل مكان بفضل قناة تحمله من نهر الكلب ، وهو مشروع قامت به شركة انكليزية أتمته عام ١٨٧٥ »^(٤) .

ذكرنا هذه الملاحظة لنشير إلى أن صورة بيروت في روايات الراسي هي الصورة الثانية ، أما الصورة الأولى القديمة فنجد عناصر منها في الأحياء المتاخمة للمدينة (رأس بيروت - وهذا ما يبرز عند حديثنا عن دخول الجامعة الأميركية) . وأغلب الظن أن المطعم وغيره من الرموز العامة : (الأسواق ، الخانات ...) كانت تتواجد في

بدوي . هذا ، ربما ، ما يفترضه سكان المدينة . وهو يستمد معناه من علاقات المكان وقيمها . أي أن هذه العقوبة تفترض ، فيما تفترضه ، انتزاع المذنب من انتسابه لدائرة علاقات العائلة ، لمرضه بطريقة احتفالية عارية أمام أعين الآخرين الذين تجمعهم به هذه العلاقات ، حيث تحمله أعينهم العارفة المستطلعة (أنشاء التجريس) إلى جوال ، بدوي ، غريب ، منتزع من تقسيمات المكان السكني وعلاقاته ، التي ترسم حدودها العائلات التي تسور مكان إقامتها وتنفرس فيه . وبما أن البدوي المذكور ، الغريب عن علاقات الاجتماع المحلية ، وتداولها ، تبعاً لانتسابه إلى دائرة علاقات اجتماعية بدوية تعتبر أن تقديم الأكل هو من واجب الزعيم ورمزاً من رموز وجاهته ، مقابل اعتراف التجمع البدوي بزعامته ووجاهته^(٥) ، بينما يخضع الأكل ، وغيره من السلع ، في التجمع المدني ، لعلاقات تبادل قوامها أسس مختلفة معقدة ، يمكن القول إنها مستمدة من قيم تبادل « رأسمالية » . وبما أن ذلك البدوي كان غريباً عن تلك القيم التبادلية ، ولا يفقه لها من معنى ، فإن عقوبة التجريس التي تفترض ، كشرط أولي ، انتساب « المذنب » إلى علاقات التجمع وقيمه التبادلية والسكنية ... فإن تلك العقوبة لم تنطل عليه وفقدت معناها بالنسبة إليه .

وتشير هذه الحادثة ، فيما تشير إليه ، أن سكان المدينة كانوا يسورون مكان إقامتهم وعبورهم وانتقالهم . فمكان الإقامة (المنزل ، الحي ، الزاوية ، المحلة ...) يتحدد بعلاقات الجوار التي تقوم بين السكان الأصليين ، حيث يكتسب التجريس والتطويف قيمته ومعناه برد المذنب إلى ما قبل انتظامه في علاقات المكان وأمنه وانتسابه إليه . فيكون (التجريس والتطويف) حجاً يسوّغه عرف محلي ، للتغطية الشرعية التي تصون هذا الانتهاء ، من قبل الجيران وسكان الحي والمحلة .

دلالة أخرى للتطويف والتجريس ، فالمعنى والاشتقاق اللغويين لهذه الكلمة (التجريس) يشير إلى أنها متأنية من

ثنايا المدينة الجديدة، التي عرفت شكلها مع انفتاح المدينة على الميناء البحري، ومع تزايد القادمين من الأوروبيين، وما استتبعه تزايدهم من نشوء فئات عملية على صلة بوفادتهم (تجار أجانب، رجال أعمال وإرساليات). فبينما كانت المطاعم والفنادق تنشأ تبعاً لهذه الحاجات الجديدة الوافدة من بوابة المدينة البحرية، كانت الخانات تستقبل الوافدين الريفيين الذين على صلة «بالسوق» الذي ولجته تلك العناصر الجديدة^(٦). وكما يبدو أن هذه الخانات كانت قائمة على مدخل السوق الشرقي البري^(٧). وبين هذين المدخلين (البري والبحري) كانت السوق، وما ينشأ عن وجودها من وظائف ورموز وأدوار قديمة وحديثة. بينما كانت الأمكنة السكنية الفعلية تقوم على تقومه، أي خارجها^(٨)، حيث تتكاثر شجرات الجيميز وطيور البهام وبرك وسبل الماء التي تحف بها، إضافة إلى أساطير وخرافات تتخذ معنى التقاء البر والإحسان، عناصر وجاهة ونفوذ محليين، في الحي أو المحلة. فالذي يدفع على إنشاء هذه السبل والبرك هو تنافس على الوجاهة والزعامة والنفوذ. وفي هذه الأحياء السكنية، كانت توجد أيضاً «مؤسسات عامة» لا تخرج عن عناصر الاجتماع المحلي. فقد كان للحي «منزول» - وهو غير الخان والفندق - يشرف السكان على إدارته، لا سيما الذين يمتلكون عناصر وجاهة ونفوذ في الحي أو المحلة^(٩). أمّا الداخل (داخل المنزل العائلي)، الذي كانت تحتلط فيه الجدات والبنات والحفيدات في عزلة تامة، حيث المرأة هي محور تنظيم علاقات الأسرة الداخلية، بينما الزوج أو الرجال هم الذين يؤمنون صلتها بالخارج القريب والبعيد، وحيث تعيش الزوجات تحت جناح كبير العائلة وتحت سلطة زوجته، فإنه (الداخل) كان محفوفاً بالمناسبات الدينية والألغاز الدينية التي تسيطر على أوقات التسلية والمطالعات والأحاديث. والمشهد الصباحي، الذي يتكرر دائماً، هو الأم تصلي الفجر قبل شروق الشمس، بينما الأب يتلو الآيات القرآنية قبل الذهاب إلى العمل^(١٠).

الداخل (المنزل والحي) محفوف بعناصر دينية متوارثة (الجميزة شجرة مقدسة، وسبل الماء تعلقها الآيات القرآنية). والخارج البعيد - الغريب محفوف بالأساطير والخرافات، وربما مصدر خرافته وأسطوريته الإقامة ضمن أسوار الداخل - والمرأة أكثر من الرجل هي التي تصنع عناصر هذه المخيلة وتعممها، لركونها إلى زمن بطيء الوقع وساكن - وربما مصدر هذه الخرافات والأساطير بقايا من ذاكرة بدوية - إسلامية قديمة متناقلة^(١١) لكي تسور مكان الإقامة وتعطيه حدوداً. وبينما كان النهار يبتدىء صباحاً بالصلوات والأدعية الدينية، فيغيب أو يمحو ضوء الشمس أساطير وخرافات الخارج البعيد - القريب وغرابته، كان المساء يبتدي باستعادة القصي الخرافي، أي باستعادة حدود الإقامة...

ولكن لم تكن الحواس والمخيلة تغوران في عتمة الداخل (بالمعنى الشخصي - الفردي)، أو تقتحمان الخارج (بمعنى حقل تحقيق الذات في الطبيعة والمكان من خلال السيطرة عليهما) لتطوعه وتمتلكه. بل كانتا ما تزالان تستطلعان خارجاً ما يزال غريباً وبعيداً ومستحيلاً، بينما كان الداخل

الانتزاع بقدر ما يحيلون الحدث نفسه إلى مميزات تحف بشخصية القائد الوافد. ما يشير إلى أن «مواجهة» التجمع البيروتي لمثل هذا الانتزاع - الاختراق لم تكن تتخذ طابع أو شكل التكتيل أو «الاستنفار» الأهلي العنيف، مقارنة مع المواجهة التي تبديها تجمعات أخرى (تجمع الجبل مثلاً) في مثل هذه الحالات، (وهذه سمة سوف تبرز دائماً في سياق الروايات المتواترة. مما يجعلها عامة، وربما مرجع هذه السمة مديني).

أمّا مسرح «المواجهة» التي نتجت عن نفوذ أعيان الجبل، وضم المدينة إلى حكم أمرائه (إمارة بشر شهاب هنا)، فكان السوق بدرجة أولى^(١٨)، وذلك لأنه الدائرة أو المركز الذي يستقطب نشاطات تحتك خلالها التجمعات. ولكن هذه المواجهة كالأولى كانت تتخذ شكلاً «مسالماً»، رغم أن الاحتكاك سريعاً ما يؤدي إلى إظهار «هوية» وانتهاء أطرافه (هذا إذا لم يكن الانتهاء والهوية في جذر المواجهة أو عنصر تكويني من عناصرها). والصور، التي يقدمها هنري هيز، تشير - إضافة إلى ذلك - إلى أن خللاً يطال الحيز السكني للمدينة قد حدث، وكان «فتة» غريبة قد دخلتها وغيّرت انتظام زمنها اليومي. أمّا كافة العناصر المشار إليها فإنها تحمل دلالة على اختلاف النظام المراتبي الداخلي لكل من التجمعين المذكورين. فبينما كانت «العصبة» تخترق التجمع الجبلي (الدرزي خاصة) وتراتبه «عامودياً» من الأعلى إلى الأسفل، مما يستنهض قوى أهلية متأسكة عصبياً وشديدة التلاحم الداخلي، وجاهزة للمواجهة الشاملة (لا سيما العسكرية منها) في كل لحظة، كانت المراتب الداخلية للتجمع (البيروتي - المديني)، تشي بصورة مختلفة تقوم على تكتلات جرتية، شديدة الانتشار والتوزع (المراتب) بين عائلات تجارية وحرفية ومهنية، أو ذات مناصب إدارية في جهاز السلطنة، وتقوم صلاتها (العائلات) وتنجد في إطار علاقات السكن المكانية: (الجوار، القرابة والنسب اللذين يشبهان علاقات الجوار إلى حد بعيد). وهذا ما تذهب أيضاً إلى تأكيده

ما يزال غير موجود ربما... وربما من «السوق» (الذي ما تزال الكتابات النظرية تستجلي عناصر تكوينه وهويته) بدأت تخرج صورة الانسان «الحديث»، الذي يقول أنطون مقدسي إنه يمضي دون أن يلتفت إلى شيء، وإن التفت فلا تحيله صور الخارج إلا إلى عتمة الداخل، حيث يتم رغباته السرية الغامضة العمياء^(١٩).

٢ - المكان: مسرح احتكاك

الأحداث التي تتوافر وتتردد أصدائها على السنة سكان المدينة (كما يجمع بعض عناصرها الراسي) تشير إلى اعتبار دخول ابراهيم باشا المدينة حدثاً طارئاً ودخيلاً، أدخل تغيرات على علاقة التجمع البيروتي بغيره من التجمعات، لا سيما تجمع الجبل الدرزي - الماروني^(٢٠)، كما أحدث هذا الدخول، كصدى أو كنتيجة مباشرة للتغير الأول، تغيراً في علاقات المكان ورموزه وعلاقة الوافدين إليه بالسكان المحليين، وبدأت تبرز أحداث طائفية، مسرحها السوق الذي هو مكان أول من أمكنة الاختلاط^(٢١)، وأخيراً التغير الذي طال علاقات التداول النقدي وقيمه وتعبيراته اللغوية^(٢٢).

ونقلاً عن إحسان المخزومي، يروي الراسي أن فخري بيك هذا، وفد المدينة مع حلة ابراهيم باشا، وعينه هذا الأخير متسلماً على بيروت وقائداً محلياً لعسكره (حسب أحد شيوخ بيروت المعمرين)، فمد سيطرته إلى قلب الأحياء السكنية البيروتية، حيث كان مقر القيادة المصرية في زقاق البلاط قرب بيت آل حادة، وحيث تركزت حاميات جيشه. الأمر الذي يحدث تغييرات في علاقة السكان المحليين بوسطهم الداخلي^(٢٣). فبينما كانت مثل هذه الأحداث (أحداث الشرف هنا) تخضع «لعرف» محلي لصيق بعناصر الاجتماع المحلية نفسها، فإن حضور «رقيب» خارجي ينزع من «الأهل» تداول ونشر أعرافهم أي «سلطة» اجتماعهم التي يمتلكونها، ثم يلحقها بجوارته. ولكن يبدو من سياق الرواية أن السكان لا يتصدون لهذا

الرجال، بحضور ابراهيم باشا الذي خيّرهما بين استرجاع زوجها أو أخيهما أو ابنهما، تختار أخاها «لأن الزوج موجود والإبن مولود، والأخ إن مات فلن يعود»^(١٢١)، مما يشير إلى أن ابراهيم باشا جعل من التجمعات التي ألقاها بحكمه «مادة» عسكرية لمشروعه، بينما كانت مصر «خزانة» الاقتصادى والبشري، إضافة إلى الضرائب المفروضة على بعض المقاطعات. ولكن التجنيد، تبعاً لدلالة هذه الحادثة، كان يقع على الفئات غير المنخرطة في الوظائف الادارية والتجارية، مما لا يخولها التفلت منه. بينما كان هذا التفلت امتيازاً لتنفيذي وموظفي العائلات الذين كان باستطاعتهم، أيام السلطنة، أن يرفعوا شكوى إلى «الباب العالي» العثماني ضد الوالي^(١٢٢). حدث آخر وأخير يظهر علاقات مكانية - سكنية بما هي حيّز طبيعي - جغرافي. هذا الحدث هو مشروع ابراهيم باشا بقطع شجر الجميز من شوارع المدينة وأحيائها، لاستخدامه مخاضاً لدق الأرز في مصر^(١٢٣)، مما أثار نقمة السكان، لأن الشجرة لم تكن تقطع من المكان فحسب، بل من الذاكرة أيضاً، ما يغير صورة علاقات وحدود المكان وجغرافيته وانتظام زمنه اليومي المعاش، ويتزعمه من أمته وإلفته المفترضين. إنه «اعتداء» على المكان والقيم (فالجميزة حضورها مقدّس، كما وتحمل مآثر العائلة) واعتداء على الذاكرة والمخيلة وصورها.

كأن «حس المكان» كان يخاف من العراء ويرفض أن يتقلّص إلى داخل البيت. فوجود شجرات الجميز، أو غيرها من الشجر، بين الأبنية والبيوت وساحتها، كان يتيح للسكان مآة مكان إقامتهم إلى خارج جدران المنزل دون الخروج إلى عراء المكان العام، وهو خروج كانت لا تبيحه علاقات السكن وقيمه التي تفترض في نفس اللحظة، انخراطاً في علاقات جوار إطارها الحي أو المحلة، وانفصالاً أو استقلالاً، إظهاره بيت العائلة.

ومع أن قطع شجر الجميز، يمكن أن يوحى، من

«المنافرة» التي حصلت بين جبلي وبيروقي^(١٢٤)، مشيرة إلى اختلاف تظهر عناصر الوجاهة والنفوذ ومسرحتها بين التجمعين. فبينما لا تستخدم الوجاهة البيروتية - المدنية عناصر فروسية، بقدر ما تستخدم عناصر مرجعها امتلاك أو حيازة «سلطة» إدارية أو مالية أو مهنية، تعلن عن نفسها في حيّز «مديني»، ذلك بينما تبدو الوجاهة الأخرى (الجبيلية) محفوفة بوراثنة منصب وتوريثه... ف«ركن الإمارة» خيلها ورجالها، بينما يقول المثل البيروقي «بقية الجميز ما بينيت حشيش، وإن نبت ما بيعش»^(١٢٥)، ما يشير إلى اختلاف شكل التراتب بين التجمعين، تبعاً لاختلاف في مرجعه.

فبينما يشير المثل البيروقي إلى هيمنة رتبة عليا، تستمد هيمنتها من دائرة تكاد تكون منفصلة عن «الأهل»، أو لنقل أنها لا تستمد مقوماتها الفعلية من هرم مراتبي «أهلي» تنبؤاً سده، بل هي منتظمة في سلك أو دائرة عليا، لتعود إلى الأطباق على دوائر التجمع الأهلية وكنهه من خارج، ذلك بينما يشير المثل الجبلي إلى هرم من التراتب تقوم عليه الإمارة، هرم: عناصره صلات الدم والنسب والقرابة، التي تفتقر التجمع من داخل وتراتبه «عامودياً». فبينما لا ينبت حشيش - أي مراتب تغذي المرتبة العليا - بقية «الجميز»، في بيروت، فإنه لا زعامة في الجبل إلا حيث يتكاثف «الحشيش» - أي المراتب التي تغذي زعامة الزعيم - الذي هو من مقومات قيام الشجرة... ما يشير إلى أن التكتيل العصبي الداخلي هو العنصر الرئيسي في قيام الزعامة.

أما في «القرى» أو الأحياء المتاخمة «لمراكز» التجمع المديني البيروقي، يبرز حدث دخول ابراهيم باشا من خلال التجنيد الاجباري الذي يبدو أنه فرضه على الدوائر الأدنى مرتبة من السكان. وهنا يخفي العنصر المكاني الذي يحف بالأحداث السابقة، لأن الدخول قد طال عناصر تنخطاء إلى إخلاء الحي من الرجال. فأحدى نساء آل العيتاني التي تصعد مثذنة أحد الجوامع مؤذنة، تعبيراً عن غياب

منطلق تنظيم « حديث » للمكان السكني، توسيعاً وفتحاً على مدى « أعم وأرحب »، وإمكانية استيعاب حاجات سكنية قد تنشأ... إلا أنه يعني (القطع) تبعاً لعلاقات سكن أهلية سائرة فعلياً، تقليصاً أو تضيقاً له (للمكان)، لأن غياب هذه القباب - حسب تعبير هنري غيز - يفرض على السكان الانطواء والانزواء داخل جدران منازلهم (وهي من مميزات سكن حديث)، هذا، إضافة إلى أنه يخلخل الأسس الطبيعية والتخيلية لعلاقات السكن والجوار، التي هي بدورها عنصر من عناصر العلاقات الاجتماعية للجمع.

ولماذا هذا الكلام؟! ماذا كانت الأمكنة تعني بالنسبة لقيام دولة مركزية، الأمكنة والإقامة وعلاقات السكن والجوار؟ ربما لم تكن شيئاً. وربما يكون إبراهيم باشا قد وسع زراعة الصنوبر في حرج بيروت^(٢٤) آملاً أن تنمو ليصدرها إلى مصر لتدق أرز دولته المركزية، الذي يطعم جيشه الذي « للمه » (والمزدوجان إشارة إلى استعارة الكلمة من أحد مشايخ دروز سورية الذي قال له: « عسكرك لم ونحنا ولاد عم »، بعدما سأله إبراهيم باشا عن سبب انتصارهم عليه أكثر من مرة^(٢٥)... لملم هذا الجيش من أي مكان وطأته قدماء، من الصعيد في مصر حتى شمال سورية).

٣ - جامعة تزيج « أساطير » مكان

الجامعة الأميركية عنصر رئيسي وأولي من عناصر « تمدين » أو « تحديث » منطقة رأس بيروت منتصف القرن التاسع عشر. ورغم أن إنشاءها كان يستمد مقوماته من خارج متطلبات سكان المنطقة، أو التجمع الذي أقيمت فيه، إلا أن إنشاءها استقطب فئات (من كافة مناطق نفوذ السلطنة العثمانية في المشرق)، كانت حتى تلك الفترة خارج التكتيل الأهلي المحلي، الذي على صلة بالاختراق الغربي لمقاطعات وتجمعات السلطنة العثمانية، تمهيداً لاقتسام

ممتلكاتها ما بعد الحرب الأولى.

فبينما كانت تتعقد خيوط التكتيل الماروني في ظل العلاقات التجارية والثقافية مع فرنسا^(٢٦)، التي كانت تؤيد مشروع محمد علي باشا شرط ألا يطلق هو رصاصة الرحمة على الرجل المريض، ويبعد صياغة مشروع دولة مركزية مشرقية فنية (بانت استحالت)، كانت خيوط التكتيل الأرثوذكسي تتعقد في ظل صراع روسيا القيصرية مع الدولة العثمانية، الذي انتهى (الصراع) بعد أن أقفل البلاشفة حدود دولتهم أثناء الحرب الأولى، فتوقف بانتهاه مكافئ الأرثوذكس الخارجي تمًا جعلهم ينخرطون في الدعوات القومية العربية المناوئة للعثمانيين^(٢٧). أمّا التكتيل الدرزي الذي كان ناجزاً في ظل الصراع الداخلي العنيف مع الموارنة، فإنه بقي، وبعد الهزيمة السياسية التي لحقت به ما بعد (١٨٦٠)، ضيق الانعقاد على عناصر خارجية، تبعاً لتكونه الداخلي المحلي المنكمش والمحافظ، وتبعاً لبقاء مكافئة الخارجي (بريطانيا)، حريصاً على التعامل مباشرة مع الرجل المريض، وإبقائه أطول مدة ممكنة على فراش الاحتضار، وذلك لموقع بريطانيا المناوئ للسياسة الفرنسية تجاه الدولة العثمانية. ذكرنا هذه العناصر، لنشير إلى موقع الطائفة البروتستنتية الحديثة التكوّن في كنف الارشاليات التبشيرية المتعددة المصادر (بريطانيا، ألمانيا، أميركا لاحقاً) والتي تكتلت حولها المراتب الأدنى في الطوائف المسيحية، طلباً للتعليم، لتجد منفذاً لها إلى الوظائف. لم يكن تشكل الطائفة البروتستنتية يستمد مقوماته من عناصر « تاريخية » محلية، بالمقارنة مع الطوائف المسيحية والاسلامية الأخرى. (وهذه مسألة ذات مرجع غربي أساساً، حيث كانت الدعوة البروتستنتية حركة مناوئة لسلطة الكنيسة الكاثوليكية، على أيدي دعائها لوثر وكالفن في ألمانيا. كما وذهب ماكس فيبر إلى اعتبارها جرثومة نشوء الرأسمالية على المستوى الايديولوجي)، تمًا جعل هذا التكوّن أو النشوء يخرج عن إطار التكتيل الأهلي التجمعي، ويستمد مقوماته من أفكار علمانية مساواتية كانت تلقى

الارسلالات، تشغل موقعا «عضويا» داخل المراتب الأدنى من التجمعات الطائفية في المشرق، فهؤلاء الذين لا يجدون طريقا إلى الترقى الاجتماعي أو الوظيفة، إلا بتحصيل العلم الذي لم يكن شرطا بالنسبة للمراتب الطائفية الأعلى... ولكنه مع ترسخ دخول الغرب أصبح شرطا.

في هذا السياق، يأتي التحاق عديد من أبناء العائلات الاسلامية، التي ورثت أساسا «يسرها» من مراتب ووظائف سابقة، التحاقها في مدارس الارسلالات وجامعاتها. ولكن، بينما كان أبناء هذه العائلات يأتون من خارج السياق، كان الآخرون يتوجون انخراطا عضويا ويوميا متساوقا عمره عشرات السنين.

أما الحديث عن «هامشية» الارسلالات والجامعات الأجنبية (والجامعة الأميركية خاصة) فلا يعدو كونه كلاما عاما، يلغي «تاريخا» كاد أن يصبح عمره مئتي سنة، يتوظف (إلغاء التاريخ) في سياق دعوة قومية هي من نتائج هذا التاريخ نفسه.

كان لا بد من هذا التقدم قبل الانتقال الى الحديث عن الموقع الذي سوف تشغله الجامعة الأميركية في محيطها السكاني القريب (منطقة رأس بيروت).

يذكر منح الصلح أن الجامعة اشترت أرضها من آل تلحوق، وأنها بقيت تتوسع على أرض دروز جبل البحر^(٢٣). ويضيف الراسي، نقلا عن معمر المنطقة، أن صراعا دمويا كان قد وقع بين آل تلحوق وآل الحمرا الذين كانوا من الفلاحين، وكانت النتيجة القضاء على آل الحمرا وإنهاء سلالته أو فرار من تبقى منهم على قيد الحياة (وكان الحياة قيدا) إلى منطقة البقاع، حيث تغير اسم عائلته إلى آل حيمور^(٢٤).

وكان حدثُ تشييد الجامعة سنة (١٨٦٦) غربيا، بالنسبة لأهالي المنطقة المجاورة. فبينما كان رد فعل العائلات السنية (آل العيتاني، الداعوق، اللبان، شاتيل...

صدى في الأوساط المرتببة المحلية الأدنى للطوائف المسيحية^(٢٥). ما يشير إلى أن تكونها (الطائفة) لحدائث لم يكن يتمتع «بالحصانة» التي للتجمعات الأهلية - الطائفية الأخرى، ولم يكن العنصر السياسي هو الغالب في سياق هذا التكون، بل إن الوجه الغالب كان الوجه الثقافي التعليمي التبشيري العام، الذي ينعقد على عناصر تحديثية عامة وافدة، كانت تلتقفها العائلات الصغيرة المتفلتة من التكتيل الطائفي الأهلي، لعدم استفادتها من مراتبه، مما جعل الدعوة إلى التقدم «العلمي والخضاري» ركيزة لدعوتها^(٢٦). وإضافة إلى هذا التكون غير التاريخي للطائفة، فإن مكافئها الخارجي بقي ملتصقا، ربما لأن أميركا كانت ما نزال غير منخرطة فعليا في تيارات السياسة الدولية وامتداداتها بعد. ولأن ألمانيا كان أفقها السياسي الخارجي يحاول استمالة الدولة العثمانية والتحالف معها^(٢٧). لذا بقي التكتيل البروتستانتي لا يتمتع بثقل أهلي تجمعي محلي، بل إنه بقي دائرا في الأفق العام للاتجاه الاستشراقي - الثقافي، الذي أعد المراتب الدنيا الطائفية للمسيحيين للانخراط في سلك حديث (إدارة، وظائف، تعليم)، إضافة إلى بعض الأقليات الإثنية الوافدة (الأرمن)، مما أمن لهم ترقيا اجتماعيا في ظل الانتداب والكيانات ما بعد الحرب الأولى^(٢٨).

كانت الجامعة الأميركية، بهذا المعنى تنويعا لنشاط إرسالي كثيف في فلسطين ولبنان خاصة، بعد تأهيله وإعداداته لمجموعات من «الكوادرة» المحليين، مما انضج مشروع فتح جامعة في بيروت تستقبل وتقطف ثمار هذا النشاط الكثيف. أما أبناء العائلات الاسلامية من كافة الأقطار والجهات العربية، فقد كان دخولهم الجامعة والمدارس الإرسالية سابقا، من خارج السياق الطويل الذي رسخته هذه الأخيرة داخل المراتب الأدنى من التجمعات^(٢٩).

بهذا المعنى كانت الجامعة الأميركية، وغيرها من

وبينما بقيت الجامعة جسماً غريباً، تحف بنتائج الاحتكاك بمناصره (أطباء، معلمين، إداريين، وسائل تقنية...) أساطير وخرافات تتجدد، كانت العائلات الأرثوذكسية المحلية في رأس بيروت (تستغرب) استقطاب الجامعة، للعمل في أجهزتها، فثبات ليست من أرثوذكسي المنطقة^(٢٧)، مما يشير إلى رغبتهم في الانخراط في «عالمها» (وهذا ما يعيد تأكيد إشارتنا السابقة بأن الجامعة قامت أساساً على استقطاب أبناء عائلاتها، إضافة إلى تنوع مصادرها التجمعية المنطقية والائتية، تحدرهم من الأرياف لتهيئتهم للانخراط في «عالم» المدينة عبر التعلم في الجامعة، بعد أن أمنت لهم الدعوة البروتستنتية في إرسالياتها الدخول إلى «الجامعة - المدينة» كمسيرة طبيعية^(٢٨).

ويتواتر الاحتكاك بين عائلات رأس بيروت والجامعة الأميركية في روايات الراسي. فبينما كانت مباني الجامعة تنهض وتتوسع ويدخل طاقمها في علاقة يومية مع السكان^(٢٩)، كانت الجنيات والوحوش تهرب من الأمكنة وتختفي ثم تنمحي من «ذاكرة» أبناء المنطقة وسلوكهم تجاه المكان، لكي تولد «أساطير جديدة من نوع آخر، مصدره ما كانت الجامعة تبث في وسطها من تقنيات ومعارف وعلاقات، لا سيما الطبية منها، التي نشطت حولها «مخيلة» لا تألو جهداً من أسطرة (من أسطورة) ما يحف بمسائل المرض والشفاء والموت. إذ كانت هذه المخيلة، عبر تناقل الأخبار والأحاديث حول ما يجري داخل مباني الجامعة، تهجس زمناً آخر وعالمًا آخر وبشراً آخرين^(٣٠). هذا بينما كان «الآخر» (دكاترة الجامعة، موظفوها...) يحاول أن يتوصل إلى (صيغة) تردم الهوة بين «عالمين» من العادات والتقاليد (مأكلي، أزياء...)، حتى الوسائل الطبية. مروراً بالشعائر والترايم واللغة^(٣١).

كانت هذه الصبغ أو التسويات أو المصالحات - إضافة إلى أنها تشير إلى اختلال عناصر عالم «تقليدي» بكافة رموزه - من العلاقة بالمكان حتى العلاقة بالذات واللغة...

ولا يرد ذكر آل الحمرا) بمواجهة الأميركيين الذين شرعوا بالبناء هو تحذيرهم من الحيات والضباع والوحوش والجن السارحة في المكان، كان بعض (أفراد) العائلات المسيحية الأرثوذكسية (ربيز، صوراقي، بسول، بضاقي...) يعاونون الأميركيين في البناء^(٣٥). (ولا نريد أن نعزو الفارق في استقبال الحدث إلى مسألة «العالة» السياسية أو الثقافية، التي تروج وراجت في مثل هذه المواضع وغيرها. بل نريد أن نشير إلى اختلاف طرق استقبال الحدث، تبعاً للفارق في تمثيل المكان والعلاقة به). ولكن لماذا لا يجد المسلمون السنة (وذكر السنة هنا للإشارة إلى أن التجمع الشيعي يختلف سلوكه تجاه المكان عن التجمع السني)، لا يحدون في «ذاكرتهم» إلا هذه العناصر الخرافية لتنظيم (أو لا تنظيم) علاقتهم بالمكان، ولا ينتصون غيرها بمواجهة حدث طارئ على هذا المكان!؟

يا مكاننا القول هنا - في هذا الموضع المحدد، حيث يتمسرح الحدث ويتخذ شكلاً منظوراً ومحدداً - إن عناصر «الذاكرة البدوية» المستعادة (سبقت الإشارة إلى هذه العناصر في مكان آخر من هذا البحث) تقلص المواجهة المفترضة إلى حدود «الفلكلور». هذا ما يشير إليه رد فعل الأميركيين الذين «يتكفلون الحيات والضباع والوحوش» (مما يشير إلى خبرتهم في السيطرة على مثل هذه العناصر في الطبيعة)، ورد فعل معاونهم من آل ربيز، الذي «يتكفل بطائفة الجن»، (تبعاً لمعايشته واختباره لهذه الأساطير في محيطه السكني). كأن هذه العناصر التي تغرب المكان وتجعله خرافياً وأسطورياً ومستحيلاً، لا تحضر إلا لكي تقاوم السيطرة عليه ولاستخدامه في وجهة محددة. (ولا يظن أحد أن هذه العناصر تحضر فقط في مواجهة سيطرة الآخر - الغريب - على المكان، بل إنها تحضر أيضاً بمواجهة أي حدث من أي جهة أتى^(٣٦)). والوجهة التي تظهر جليلة من الأمثلة المذكورة، هي وجهة استخدام دخلت مع وفادة الرؤسالية عامة.

الخ. إضافة إلى ذلك فإنها كانت تنتظر عناصر «تمدين» رأسالية تتضافر على اختراقه (العالم التقليدي) شيئاً فشيئاً. ولكن ليس قبل أن ينبهر السكان المحليون بوسائل وعلاقات وقم جديدة، ليغدو اجتماعهم المحلي بمواجهتها هزيلة وضامراً، ولتغزو صور عالم جديد «مخيلتهم الاجتماعية» التي تنوء طالبة الالتحاق بمراتبه وقيمه.

عند هذه اللحظة، يكون «الآخر» قد انتقل من صيغة التسوية والمصالحة مطالباً بشروط الانتساب كاملة وغير منقوصة. إلى درجة أنه يرفض حتى التحدث بلغة كان قبل حين، يسمى إلى إقامة صلة ما معها، ولو خارجية، تتيج تبادل القيم والرموز. كأنه الآن قد تأكد من أن السكان المحليين قد انتقلوا إلى التاهي مع «عالم» يسك هو وحده التحكّم بمقاليده وعناصره وسيروته، وسيرورة علاقتهم به^(٤٢).

ولم ينطو عهد «الأساطير» الجديدة التي راجت حول الجامعة، وكانت بوابة أو مدخلاً للتاهي، إلاً بعد زوال الزراعات البسيطة المحلية وتربية الأبقار، - التي تَوَاقَبَ زوالها مع توسع السوق واختلاف قيمه وسلعه ومبادلاته - وتوسع امتداد المدينة إلى منطقة رأس بيروت، حيث اختلفت وظائف حيابة الأرض وغدت أملاكاً عقارية تحوّل مالكيها الانخراط في حياة «مدينة»، عن طريق الإثراء السريع المفاجيء الذي حقّق التاهي بدخول بعض أبناء تلك العائلات إلى الجامعة^(٤٣). فكان الانتقال من معبور آل الحمرا إلى أضواء وشوارع ومحلات ومقاهي منطقة الحمراء. ومن وحوش خندق ديبو وظلمته والجنابات الراقصة في ضوء القمر إلى أجواء الجامعة ومختبراتها وعلومها وملاعبها.

ولكن عندما بدأ السكان المحليون (خاصة الشبان منهم) يدخلون في دورة حياة جديدة، ويتعلّمون إضافة إلى دروسهم «الأكل والجلوس في المقهى على الطريقة الأميركية، وشرب الشاي في أوانه، والتعامل السبور،

وسهولة روابط الصداقة، ولعب التنس، والاستحمام بالدوش كل يوم، وشرب الخليب عصراً في بيوت أساتذتهم وأصدقائهم، حيث كانوا يشمون رائحة الفانيليا والباكمبورد للمرة الأولى...^(٤٤)، وعندما استنكف أهالي المنطقة عن قرع الدفوف وإقامة الصلوات والأدعية عند خسوف القمر، لأن هذه المسائل من السخافات كما يقول أهل المنطقة أنفسهم^(٤٥)، عند ذلك كله أو بعده قليلاً، كان أحد الأميركيين يعرب عن حزنه الشديد بسبب انتشار محلات السوبر ماركت في بيروت، لأنها تقضي على أخلاقية المجاملات، حيث كان صاحب الدكان يسألك عن الصحة والأولاد... ويتبرّع لك بحكمة أو نصيحة طيبة ضد الشيخوخة وعدم الإمكان، ذلك بينما كان أميركي آخر يقول، تعليقاً على انقضاء شعائر خسوف القمر: «ماذا تبقى من جمال الشرق إذا جردتموه من أساطيره وخرافاته؟»^(٤٦).

ولماذا لا يصير الشرق «شرقاً»، أو لا «يتشرقن» (حسب تعبير أدوار سعيد في كتابه «الاستشراق»)، ولا تصير أرضه وتقاليده ماثراً حين إلى ماضٍ حقيق، بدائي وغريب، إلاً عندما «يترجم» ويصير «الغرب» في داخله؟

الولوج من بوابة الجامعة الأميركية الآن إلى ملاعبها وحدائقها ومقاعدها ومكتباتها، يذكر بمكان ما يزال الزمن يجري فيه هادئاً ومنظماً وراسخاً. مكان في مدينة لم ينتظم مرة زمن مكانها. المدينة التي استوردت، مع الجامعة الأميركية تنظيماً «حديثاً» للمكان، بينما (يقول) مبنى الجامعة - المبنى العتيق المطمئن الذي يوحى بـرسوخ في تاريخ - يقول إن للمكان قدرة على توليد وتنظيم زمن العيش.

٤ - «تحديث» علاقات المكان ورموزه

كان قد مرّ معنا سابقاً أن التجمعات المدنية، كانت

تسوّر مكان إقامتها، لتفصل بين أحياء السكن والسوق الذي يقوم وسط المدينة. وقد أشرنا أيضاً إلى صلة بعض الرموز المحلية، (البرك وسبل الماء، أشجار الجُمَيْر، الجن...) بمكان الإقامة، كدلالة على شكل تنظيم السكان المحليين، حيازتهم للمكان الذي يشتركون في إقامتهم فيه.

إلا أن أحياء السكن هذه، والتي تتوزع إلى دوائر صغيرة: (حي، محلة، ناحية...) كانت تطل، قبل انفتاحها على السوق، على حيز مكاني موضوعي مشترك (شارع، ساحة، زاروب...). يدخل في دائرة استخدام وتداول محلة ضيقة، يحوزها سكان الحي أو المحلة الذين يتولون، تبعاً لمراتبهم وقيمهم، الإشراف على تنظيم الأدوار والنشاطات التي تتم في هذه الدوائر الموضوعية المشتركة. ذلك قبل أن تدخل المدينة في طور جديد، تبعاً لدخول عناصر «رأسالية» غيّرت أو أدخلت عناصر جديدة على أدوار ووظائف الأمكنة العامة والموضعية في المدينة، مع تغييرها لقيم التبادل السكنية ولرموز تلك القيم وتجسّداتها. فمع دخول المدينة هذا الطور، تقلّصت وتفاوتت حدود إشراف التجمّعات على الأمكنة وصلتها بها. أمّا نِسَب التفاوت، فكانت تتأثّر من تفاوت انخراط التجمّعات في تلك الأدوار والوظائف الجديدة للرأسالية التي تتيح بدورها تبدّل قيم السكن والتعارف الأهليين المحليين، وتبدّل أشكال واستخدام الحيز المكاني المشترك ورموزه المتداولة.

فالعناصر الجديدة الوافدة، أتاحت لمؤسسات رسمية مركزية (وزارات) ولأخرى محلية فرعية أهلية (بلديات) الاضطلاع بامتلاك حق الإشراف على هذه الدوائر والأمكنة وإعادة صياغة صلة السكان المحليين بها. وذلك عبر إقامة بعض المنشآت العامة أو الرموز الجديدة، التي تخرج عن قيم التداول والتبادل التجمعية المحلية الضيقة، وتحل محل رموز ومنشآت قديمة.

تشير هذه التبدلات، فيما تشير إليه، إلى انتزاع الدوائر المكانية المشتركة للحى أو المحلة أو المدينة عموماً،

والرموز التي تشغلها، انتزاعها كمكان تنظم فيه عناصر من اجتماع محلي وقيم محلية، وإحاقها بالأدوار التي تضطلع المؤسسات المركزية، بالتعاون مع المؤسسات الفرعية، بالإشراف عليها وتنظيمها، لإزاحة علاقات ذلك الاجتماع المحلي ورموزه، تمهيداً لاستخدام المكان كحيز عام، تسري فيه أدوار جديدة على صلة بعناصر اجتماع مديني رأسمالي ورموزه.

حول هذه المسائل ينقل الراسي ثلاثة أحداث في مدن ثلاث: صيدا^(١٧) وبيروت ومرجعيون.

تبرز هذه الرواية [الهامش ٤٧] مستويين من الاستنكار، لكلّ منها مضمون ومرجع مختلف.

فبينما يرفع أهل المدينة استنكارهم إلى البلدية (وهي المؤسسة الأهلية المحلية التي يشرف على إدارتها وجهاء مدينيون محليون، على صلة وثيقة بالاجتماع المديني المحلي). البلدية التي وافقت على قرار وزارة السياحة - وهي جهاز حكم وإدارة رسمي مركزي - بإنشاء نصب لم يستسغه الأهالي، لأنه لا يمثل شيئاً. أي أن دلالة هذا النصب الرمزية والاجتماعية والجمالية غريبة عن القيم الرمزية والجمالية التي يتداولها الاجتماع المديني المحلي. وهذه الغربة ناتجة، بالأصل، عن التباين أو الاختلاف بين حسّن بالمكان ورموزه: حس «حديث» وافد، يقوم على اعتبار المكان حيزاً عاماً لا صلة له بعناصر ذاكرة ومخيلة محلية متداولة في الحيز السكني المحدّد. وحس آخر محلي، يعتبر أن ذلك الحيز المكاني على صلة وثيقة بالاجتماع وذاكرة ومخيلة خاصة بالتجمّع. ما يشير إلى أن التجمّعات المحلية، كانت تمتلك حساً بارزاً باحتياز المكان ووسمه بطابع اجتماعها ومخيلتها وثقافتها، التي تستقي عناصرها ورموزها من تراث التجمع المحلي نفسه. وهو احتياز يُحوّل التجمّع ممانعة التبدلات التي تأتي من خارج الأطر والرموز المحلية، التي يتداولها ويعترف من خلالها على حيازته أو سيطرته على المكان. أي على عناصر محلية من اجتماعه، وتجسّدات مخيلته وثقافته

التي لا بد وأن تُخَيَّم على المكان وتطبعه بطابعها المميّز.

حول هذه المسائل، تتمحور ممانعة أهل المدينة ومعارضتهم، التي تقوم بوجه البلدية التي « وافقت على تشويه مدخل مدينتهم »، وليس على الوزارة التي « قررت » إنشاء النصب. أي أن المعارضة تتجه وتنصب على الصلة التي تربط البلدية (الجهاز المحلي أو الفرعي) بالوزارة (الجهاز المركزي)، الصلة التي أتاحت قيام النصب.

وما استدعاء مجلس البلدية لمصممة النصب لسؤالها عن معناه، إلا استجابة من ذلك المجلس لمطلب سكان المدينة. أي أن المجلس البلدي ليس خارج الاجتماع المحلي إلا بقدر صلته بالجهاز الإداري المركزي للوزارة وبقراراتها. وما نقل حجارة النصب من مكانها إلى مكان آخر، تالياً، إلا دليل على الصلة الحميمة بين الأهل ومجلسهم البلدي الذي لا بد وأن يكون على رأسه وجهاء المدينة ومتنفذو عائلاتها المحلية. كما وتبرز هذه الصلة الوثيقة أيضاً، من خلال إنشاء البلدية للمستراح سابقاً، لتأمين حاجات الوافدين إلى المدينة من القرى والمدن المجاورة. الحاجات الناتجة عن صلة المدينة بالخارج القروي والآخر المديني.

أمّا انصباب معارضة أهل المدينة وتمحورها واقتصارها على العناصر التي تتبعها آنفاً، دون الالتفات إلى الدور أو الوظيفة التي يشغلها المستراح بالنسبة للوافدين، فدليل على عدم حاجة سكان المدينة الفعلية لاستخدامه وظيفياً. ما يشير إلى أن زواله أو بقاءه لا يثير اهتمامهم. كأن المستراح أو المحطة، كدور وظيفي، يقوم خارج علاقات الاجتماع المحلي المديني. ذلك، بالرغم من أن وجوده، من وجهه آخر، كمكان يخضع لحيازة أهل المدينة أنفسهم، الذين لا بد وأن تدخل حيازتهم هذه عنصراً في تنظيم العلاقات بين السكان المحليين والوافدين إلى المستراح^(٤٨).

يبقى أن نشير إلى احتجاج أهل القرى الوافدين، الذين « افتقدوا المستراح » والذين لا يجدون جهة محددة « رسمية » أو غير رسمية، ينقلون احتجاجهم إليها. إنهم بالأصل من

خارج العلاقات التي تهيمن أو تحوز على المكان، وتقتصر صلتهم به على أدوار يومية وظيفية، رغم ديمومتها، تبقى عابرة؛ مما لا يتيح لهم الانخراط الفعلي أو المشاركة في الإشراف على تبدلاته وتغيّر وجهه استخدامه، أي حيازته. لذا لا يسندرج الاحتجاج الذي يبديه هؤلاء القرويون في جهة محددة، ويبقى في إطار تداول موضعي بينهم، دون أن ينتقل إلى حيّز الفعل.

إنه احتجاج كلامي - زجلي، رغم انتقال معناه وشيوعه، لا يتحوّل إلّا إلى قول « فلكلوري » مأثور.

وبينما يثير إنشاء النصب، في ساحة عامة من مدينة صيدا، احتجاجاً أهلياً، يؤدي إلى نقله من مكانه، فإن « الحكومة » تقوم بنقل تمثال الشيخ ابراهيم البيازجي من مدخل أحد أحياء مدينة بيروت، إلى باحة وزارة التربية^(٤٩). دون أن يثير ذلك أي احتجاج أهلي من أهالي الحي. وتشير العبارة التي تعلق عليها الكاتبة الفرنسية [الهامش ٤٩] إلى أن المكان الذي كان التمثال موضوعاً فيه، يقع في دائرة يطل عليها الاجتماع المحلي للحي المذكور. أي أن علاقات السكن والجوار تفترض حيازة السكان لهذا المكان وإشرافهم عليه، خاصة بمواجهة العابرين الغرباء الذين يقضون حاجاتهم قرب التمثال.

إلّا أنّ حَدَثَ النقل الذي تقوم به الحكومة لا يثير أي احتجاج. هو ما يدفعنا إلى القول، إن وجود التمثال لم يدخل في علاقة تبادل رمزية في الاجتماع المكاني المحلي. ذلك أنه رمز ثقافي خارجي، بالنسبة للتداول الثقافي المعاش ورموزه المحلية. وكما أشرنا سابقاً، فإن الرموز الثقافية الاجتماعية للتجمّع المديني البيروتي، كانت تحف بها عناصر دينية وخرافية. وبينما تقتصر رمزية التمثال على عناصر « ثقافية رسمية »، (تفترض التوحيد من وجهة مؤسسات الدولة الرسمية)، تكوّنت خارج الاجتماع المحلي « العضوي »، ومنفصلة عنه؛ ما يجعل نقله إلى باحة وزارة التربية - أي إلى مكان عام يشغل وظيفة إدارية ثقافية

رسمية «توحيدية» - حدثاً طبيعياً، لا يشير تساؤل السكان المحليين.

أما استغراب الكاتبة الفرنسية عدم وجود تماثيل لكتاب من القرن الماضي، في بيروت، فهو يشير إلى أن تلك الرموز الثقافية قد توافقت تداولها حديثاً، وأنشئت تماثيل لها مع توسع هيمنة أسس سكن «حديث»، تَوَاكَبَ مع توسُّع مؤسسات وأجهزة دولة «حديثة». وذلك في الأمكنة العامة، القائمة خارج التجمُّعات المحلية، على حدودها وتحومها التي أضحت خطوط مواصلات عامة وساحات عامة، ما عتمت أن تحوَّلت إلى خطوط تماس حربية بين التجمُّعات، الأمر الذي يدل على انفصال هذه الرموز عن مُعاش ثقافي - اجتماعي محلي.

من زاوية أخرى، يشير استغراب الكاتبة نفسه - إذا وسعنا دلالاته قليلاً - إلى سمة من سمات علاقة الاجتماع المدني المحلي «الحديث»، بالمكان الذي يمكن أن يمثل فيه أو يتجسَّد الأثر التاريخي والثقافي لحقبات ماضية. كأن نشوء المدينة «الحديثة»، كان يزيل في طريقه ويمحو معالم ذلك الأثر عشوائياً، أي بدون الالتفات إلى القيمة التاريخية والأثرية والفنية التي تحملها تلك الرموز والمنشآت^(٥٠).

التعليقان على هدم المنارة [الهامش ٥٠] يشتركان في الإشارة إلى معنى الأثر وعلاقته، كرمز، بذاكرة اجتماعية. أي أن التعليقان يميلان المنارة الماثلة، في لحظة هدمها، إلى رمز لحقبة تاريخية - إجتماعية انقضت، لإعلان موقفين من هذه الحقبة، رغم اختلاف أو تباين مضمونها، يصدران عن فهم واحد لمعنى الأثر ولوظيفته ودلالته.

فتعليق الشاب يصدر عن رغبة في الإبقاء على المنارة، كأثر يشير إلى انقضاء زمن الإبقاء عليها ماثلة أمام الحواس لتستعيد الذاكرة صور ذلك الزمن المنقضي. ذلك،

رغم أن التعبير الذي قال تلك الرغبة: «إنها رمز إنارة الأذهان»، يعتمد قَبْلاً «خطابية» ووظائفية مباشرة. كأن تلك الرغبة - التي يمكن أن تكون «مجانبة»، ولا تدخل في سياق وظائفية مباشر، بل رغبة، هكذا - تتوخى الإبقاء على صورة تستحضر بلحظة بصرية خاطفة، سيمياء زمن وعالم قديم... كأن تلك الرغبة قد أخطأت الاستعارة والتعليل أو التعبير، حين أعلنت عن نفسها بقول وظائفية قَيْسِي مباشر وجاهز.

أما التعليق الثاني، فإنه يستعيد صور الماضي التي تُمثِّلها المنارة بطريقة تشير إلى أحداث ذلك الماضي التي عُيشت وشوهدت صورها، وما تزال ترمي بثقلها على الرؤية والذاكرة. أي أن حضور المنارة أمام البصر يستعيد صورة، ما تزال استعادتها تستتبع انفعالاً، سلوكاً، موقفاً، راهناً وفاعلاً، من أحداث ذلك الماضي. لذا، يجب إزالة الرمز لتزول صور أحداث ماضية وتنمحي من ذاكرة لا ترغب في استعادتها.

وبإمكاننا القول إن التعليقين يبرزان أهمية الأثر أو الرمز وحضوره، في لحظة شرعت فيها بلدية المدينة بإزالته، تبعاً لحاجات ومتطلبات إجتماعية مستجدة.

من دخول ابراهيم باشا، إلى دخول الجامعة الأميركية، إلى دخول الدولة... يقول التجمع البيروتي، والصيداوي أيضاً، (في المثال الأخير)، عناصر رئيسة من مواجهته الاجتماعية، لحدث خارجي، في حيز المكان.

قد تبدو هذه الأحداث انتقائية، إلا أنها - التي تكررت في مادة بحثنا هذا - تشير إلى نموذجيتها، طالما أننا لم ندعِ محاولة تأريخية لتحولات النظرة إلى المكان وعلاقته، بقدر ما ركزنا اهتمامنا على مقاربة بعض الصور في إطار سوسيولوجي - سياسي - ثقافي.

الحواشي

- (١) «في الزوايا خبايا»: سلام الراسي - المؤلفات الكاملة. جزء (٢) - مؤسسة نوفل - ١٩٧٧، (ص ٩٢).
- (٢) انظر بيار كلاستر: «مجتمع اللادولة»، ترجمة محمد حسين دكروب - المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ١٩٨١.
- (٣) الراسي: المؤلفات، (٢). (ص ٨١). ولا يغير من هذه الدلالة أن هذه العبارة وردت على لسان عبد الفتاح آغا (فتيحة بلغة السكان المحليين) متولي حاكمية بيروت نهاية حكم إبراهيم باشا، لأنها (العبارة) ما تزال ترد على لسان معتمري المدينة وكأنها قول مأثور.
- (٤) الراسي: المؤلفات، (٢). (ص ٩٠). وفي هذا السياق تأخذ عبارة «نشروها على صنوبر بيروت» معناها ودلالاتها. ويقول الراسي إن هذه الأحاديث كانت تختتم غالباً بعبارة «يا عيب الشوم شو هالجسة» أو «من ستر أهراس الناس ستر الله ذنوبه»، وهي عبارة تستدرك الأولى.
- (٥) «مباحث أجنبية في تاريخ لبنان» - لويس لورته، عميد معهد الطب في لبنان - نقله إلى العربية: كرم البستاني. طبع الكتاب سنة ١٨٨٢، على أثر رحلة قام بها الكاتب إلى المشرق سنة ١٨٨٠. أما الطبعة العربية الثانية فتمت سنة ١٩٥١ من منشورات دار المكشوف. (ص ٤٣).
- (٦) «ينزل الشرقيون الوافدون إلى المدينة في خانات خالية من الغرش، فيضطرون أن يحملوا كل ما يحتاجون إليه. غير أن الأوروبيين يمكنهم أن يجدوا ما يرغبون به من الرفاهية في فنادق فخمة، شيدت منذ سنوات قليلة على شاطئ البحر في طرف المدينة الغربي» (لويس لورته - المرجع المذكور). (ص ٤٤). وعن فيليب حتي يذكر الراسي - المؤلفات، (٢) (ص ٩٩)، أن عدد سكان بيروت سنة ١٨٣٠، كان ٨ آلاف نسمة، وعدد العائلات الأوروبية كان مئة عائلة. وأنه استحدثت في المدينة غرف استحمام خاصة بالأجانب، قرب الحمامات المحلية.
- (٧) يذكر أنيس فريجه في كتابه «اسمع يا رضا» - دار المطبوعات المصورة، الطبعة الرابعة - ١٩٧٩، (ص ٦٠)، يذكر أن سينا روكسي كانت خان الشرتوني. وسينا أمبير كانت خان الكنفاني. وسينا متربول كانت خان المتني.
- (٨) يمكن مراجعة وصف وضاح شرارة لهذه التقسيمات في كتابه «الأهل والغنيمة» - دار الطليعة، ١٩٨١. وذلك اعتماداً على عديد من المصادر. كما ويذكر لويس لورته - المرجع المذكور، (ص ٤٣) عناصر وصفية داخلية للسوق: «شوارع صغيرة متداخلة، على جوانبها حوانيت عميقة... وعلى المساطب يقعد التجار القرفصاء يجلبهم الوقار فيحتسون قهوتهم مدخنين النارجيلات أو لغافات التبغ».
- (٩) الراسي - المؤلفات، (٢). (ص ٨٢ و ٨٧). وعن عبارة سلام الخالدي في «جولة في الذكريات بين لبنان وفلسطين» - دار النهار، ١٩٧٨. (ص ١٦). تذكر أنه كان في المصيطبة منزل اسمه «منزل السلاطين». وكان لعائلته غرفة فيه، معدة لنزول ضيوف العائلة الوافدين من الخارج.
- (١٠) صور من ذكريات عنبرة سلام الخالدي - المرجع المذكور، (ص ١٣). ويذكر هذا المشهد العائلي بمطلع ثلاثية نجيب محفوظ عن عائلة أحمد عبد الجواد المصرية ومناخاتها التي تتكرر بين الحين والآخر في الرواية.
- (١١) بين المصيطبة والأشرقية (رأس النبع) كان ينساب جدول صغير وكانت تقوم هنالك خلافات ومنازعات على ملكية المياه... حيث تسرح جنيات عارية تأتي من الشرق... وكان بعض الشبان ينسقطون أخبار ضيع عين التينة الذي يزور عين المريسة في الليالي الممطرة. الراسي. المؤلفات (٢) (ص ٨٨ و ١١٤). وعن عنبرة سلام - المرجع المذكور... كانت السهرات تنقصني في سرد قصص الجان. فأنبهر بهذه الصورة الخيالية التي تطوف بنا في عالم قصي مجهول، وهو في الوقت ذاته قريب منا (ص ٣٤). وفي أواخر القرن الماضي احتلت فرقة من الجن رأس شارع زقاق البلاط، وصارت تعتدي على المارة، حتى اضطرحي الدين حمادة إلى تعيين حرس خاص في ذلك المكان. الراسي - المؤلفات، (١) (ص ١٦٨).
- (١٢) «إن الجاهليين لم يكونوا يعتبرون أنفسهم متحكمين في الأرض أو الأمكنة. فالسويديان والبهادي والأساكن المقفرة والمظلمة والمقابر، كانت مواطن لسكن الجن. لذلك كان عليهم أن يلتبسوا المعذرة والأذن في حلهم وترحالهم. وصلة العرب بالجن كانت قبل

- الإسلام وبقيت بعده أيضاً. «رودونسون ونبي الاسلام» - حسن قبسي، دار الطليعة ١٩٨١، (ص ٧٤ - ٧٧).
- (١٣) «مقاربات من الهداة»: انطون مقدسي - مجلة مواقف، العدد ٣٥. (ص ٣).
- (١٤) أخضع ابراهيم باشا بيروت لحكم أمراء الجبل، فصار هؤلاء يهيئون إليها برجالم، تحف بهم أبهة السيادة التي كانت تخرج كبرياء أبناء المدينة، فيصبرون على مضض. الراسي - المؤلفات، (٢). (ص ٩٤).
- وعن كتاب «الإدارة العثمانية في ولاية سورية: ١٨٦٤ - ١٩١٤»: عبد العزيز محمد حوض - دار المعارف بمصر، ١٩٦٩، (ص ٦٣): «ألغى ابراهيم باشا التقسيمات الإدارية، التي سادت بلاد الشام في العهد العثماني. فعين، في ديسمبر ١٩٣١، متسلمين من قبله على المدن الساحلية: صور، صيدا، بيروت... ثم عدل عن ذلك بعد سنة، وفوض الأمير بشير الشهابي في أكتوبر سنة ١٩٣٢، بإدارة شؤون هذه المدن، فولى الأمير عليها متسلمين من أقاربه». ويشير سهيل القش في دراسة له غير منشورة، تحت عنوان «مأزق الانتهاء المسيحي في لبنان»، أن عصبية الطائفة المارونية وامتداد نفوذها وغلبتها قد تكوّن في ظل «الردع المصري».
- (١٥) كان في بيروت، إضافة إلى الخانات المذكورة سابقاً، خانان، أحدهما خان فخري بيك والآخر خان انطون بيك. يقعان قريباً من بعضها في نهاية شارع «العمي» لاحقاً. واثّر نزاع طائفي حدث بين صاحبي الخانين ونزلاتهما اتفق على أن يستقبل كل منهما أبناء طائفته. الراسي - المؤلفات. (١) (ص ١٨٠).
- (١٦) ألغى ابراهيم باشا النقود التركية وعمّم مكانها النقود المصرية، فصرنا نقول: مصرية، مصريات، مصاري. الراسي - المؤلفات. (١) (ص ٢١١).
- (١٧) كان فخري بيك يتفرّس في وجوه المارة من مقر قيادته لأنه صاحب «شوفة» وكاشف أسرار، وحدث أن مرت فتاة ثم عادت مسرعة فقال لجنوده: ذهبت فتاة وعادت امرأة. فسألها أين كانت، فقالت إنها كانت في منزل خالتها. فأحضر الخالة وأرسلها إلى المحاكمة (باعتبارها مدبرة وقوادة) بعد أن دفعت عشرين مصرية وزعها على جنوده. الراسي - المؤلفات. (١) (ص ٢١١).
- (١٨) نقلاً عن هنري فيز، قنصل فرنسا في بيروت - يروي الراسي أن شوارع المدينة كانت تمتلئ بالكلاب الشاردة. وحدث أن أحد أمراء الجبل كان ماراً في أحد الأسواق، فتألبت عليه الكلاب فملقن: «ما أكثر الكلاب في هذه المدينة، فرد عليه حانوني بيروتي: «تأملوا قليلاً تعلمون أن أكثرها غريب». الراسي - المؤلفات. (٢) (ص ٩٤).
- (١٩) عثر جيلي بيروتي بأنه من راكبي الحمير، فقال له البيروتي: «نحن في بيروت يركب الرجل متاً على حماره ولكن لم يحصل أن ركب الحمار على صاحبه». الراسي - المؤلفات. (٢) (ص ٩٨). وفي هذا السياق، يورد الراسي أن رسم باز فاخر في مذكراته بعهد إبراهيم باشا، لأن ابراهيم الروماني المسيحي، قد استطاع أن يدخل دمشق راكباً فرساً رهوانياً. ويذكر أسعد الحياط في كتاب «صوت من لبنان» - نقلها عن الانكليزية ميخائيل صوايا - المطبعة الكاثوليكية (دون ذكر تاريخ الصدور)، يذكر أنه، في عهد إبراهيم باشا، تمركزت في دمشق طائفة من المؤسسات التجارية الأوروبية... وقد غصت المدينة بالأوروبيين والفرس والهنود والاعريق... (ص ٤٩). وتتواتر روايات أخرى عند الراسي، حدثت في دمشق، تشير إلى أن ابراهيم باشا قد تدخل شخصياً في فض بعض المنازعات الطائفية، وقال أثناء استدعائه لوجهاء مدينة دمشق، على أثر منع المسلمين للمسيحيين من بناء كنيسة لهم، قال: «إذا كان الله رباً للجميع، وجب عليكم إذن أن تسمحوا لهم ببناء كنيستهم». المؤلفات. (١). (ص ٩٧). ما يشير إلى أن ابراهيم باشا كان يحاول أن ينزع العناصر الاجتماعية عن الانقسام الديني الطائفي أو ينزع العناصر الدينية من الانقسام الاجتماعي. أي فصل الدين عن الدولة بلغة «حديثة». وربما مرجع هذه العناصر هو مشروع ابراهيم باشا في إقامة دولة مركزية تستقي «دستورها» من مبادئ الثورة الفرنسية. إلا أن هذا المشروع كما أثبت الزمن، قد أعاد صياغة التوازنات الداخلية بين التجمعات بغلبة جديدة.
- (٢٠) القول الأول لأحد شعراء الجبل. الراسي - المؤلفات. (٢). (ص ٩٨). بيتا المثل الثاني هو لعجوز بيروتيه قالت له بعد الفتح آغا، عندما أراد تشييد قصر له في زقاق البلاط الذي حل هذا الاسم بعدما رصف الزقاق المؤدي إلى القصر بالبلاط. الراسي - المؤلفات. (٢) (ص ٨١).
- (٢١) الراسي - المؤلفات. (١) (ص ١٠٦).
- (٢٢) يحكى أن وجهاء بيروت، رفعوا شكوى إلى الباب العالي ضد الوالي بتهمة الرشوة واستغلال الوظيفة. ولكن الوالي قال لهم: «كبروا

عقلكم... أنا جمعت ما فيه الكفاية وشبعت. فهل تريدون أن يذهب الشبعان ويأتيكم الجوعان». - الراسي - المؤلفات. (٢) (ص ١٤٩).

(٢٣) يصف هنري غيز مشهد قطع الجتميز قائلاً: «وصمدت إحدى الجميزات أمام فأس الوالي بعد أن تمسك بها أحد الرجال مقبلاً قائلاً للجنود: «لا تستطيعون قطعها قبل قطع رقبتي»، ويتابع غيز بأن ذلك اليوم كان مأثماً. فالنظر الذي ألف رؤية هذه القباب لم يرتع إلا بصعوبة إلى ذلك الفراغ الذي حدث بقطعها». - الراسي - المؤلفات. (٢) (ص ٨٣). وتدور إحدى قصص الروائي المغربي محمد زفريات في مجموعته القصصية، «الشجرة المقدسة» - دار الآداب، ١٩٧٩، حول قطع إحدى الشجرات في المغرب، حيث ينقل مشهداً من هذا النوع.

(٢٤) يقال إن عبد الفتاح آغا، المذكور سابقاً، زرع كمية من أشجار الصنوبر في حرج بيروت. - الراسي - المؤلفات. (٢) (ص ٨٢).

(٢٥) الراسي - المؤلفات. (١) (ص ١٣٩).

(٢٦) يمكن مراجعة عناصر هذا التكتيل موسعة في كتاب وضاح شرارة «في أصول لبنان الطائفي» - دار الطليعة، ١٩٧٥.

(٢٧) سنة ١٧٧٤ أعطيت روسيا حق رعاية الأرثوذكس في المشرق، وحث شعائهم وفتحت لهم المدارس وأفاق العلم. وفي سنة (١٩٠٦) أقيمت عدة مظاهرات أرثوذكسية في المدن والقرى وخاصة أميون، دعماً لروسيا في حربها مع العثمانيين. وقبلها في سنة (١٨٨٠)، بيعت قيصراً روسيا رسالة إلى سليم بترس تعرف عن قبوله لأن يكون «اشيئاً» للعائلة، حيث اعتبرت بقية العائلات الأرثوذكسية ذلك شرفاً للطائفة. - الراسي - المؤلفات. (٢) (ص ٢٠٦). أمّا عن تبني متقفو الطائفة للدعوة القومية والأفكار العلمانية فدلينا فرح انطون وشبلي الشميل وعشرات غيرهم، إضافة مواقف مدينة مرجعيون المتكررة أثناء الثورات العربية المتكررة ما بعد الحرب الأولى، وهذا ما تبرزه مجلّة كتابات الراسي في أكثر من موضع.

(٢٨) الحاج عبدالله الراسي (عم الراسي)، لم يتمكن من أن يبيت ليلته في أي من خاني انطون بيك أو فخري بيك في بيروت، لأنه كما يقول فخري بيك: «بروتستني، لا من النصاري، ولا من المسلمين»، كما ويذكر الراسي أن أسعد الشدياق، وهو ماروني، قد عذب حتى الموت في أحد الأديرة المارونية لأنه اعتنق المذهب البروتستنتي. وإثر هذه الحادثة اعتنق أخوه فارس الدين الاسلامي وسمى نفسه أحمد فارس الشدياق تشفياً. - الراسي - المؤلفات. (١) (ص ١٨١).

(٢٩) حنا باز تليمذ يواكيم الراسي (والد الراسي) في مدرسة الفنون الأميركية في صيدا، يكتب مقالاً بعنوان تقدم العلم، يترحّم فيه على والده الذي مات قبل أن ترى عيناه عود الثقاب وقنديل الكاز ومكنة الخياطة... - الراسي - المؤلفات. (١) (ص ١٢٨). وأنيس فريجة في كتابه «قبل أن أنسى» - دار النهار ١٩٧٩، يذكر عدم استساغته للثقافة والحياة الفرنسيين، بينما يرى في الثقافة والحياة الأمريكيتين قبلة مثله وطموحه.

(٣٠) أثناء زيارة امبراطور ألمانيا، غليوم الثاني، إلى المشرق نهاية القرن الماضي، ونحوه في لبنان وفلسطين وسورية، قَدِمَ إليه مطارنة الطوائف المسيحية طالبين تدخله لرفع الاضطهاد عن المسيحيين، فقال لهم: «أمامكم ثلاثة حلول: إما أن ترحلوا من هذه البلاد، وإما أن تقبلوا بالأمر الواقع وإما أن تصبروا مسلمين». - الراسي - المؤلفات. (١) (ص ٢٨).

(٣١) تشير مسيرة آل فريجة وآل الراسي إلى هذه النقطة، وفي عديد من المصادر المذكورة. ويذكر فريجة عديداً من المدارس التي أسسها أعضاء جمعية «الفرنندز» - الأصدقاء أو الأخوة - في لبنان. كما، ويذكر أن مدير الميام التابعة للإغاثة الأميركية ما بعد الحرب الأولى قد عبّنه مدرساً للغة العربية للمهجري الأرمن، حيث قال له: «ينبغي هؤلاء (الأرمن) أن يتعلّموا اللغة العربية المحكمة إلى جانب مهنة تؤمن لهم كسب العيش». كما يذكر أن أعضاء هذه الجمعية المذكورة كانوا في غالبيتهم من اليتامي وغير المعروفي الأصل والانتساب العائلي، وفارين من تربية كاثوليكية صارمة في أنحاء أوروبا، مما يشير إلى التقارب في التكوين الاجتماعي بينهم وبين الفئات الاجتماعية المحلية التي انحطت في معادهم ودعوتهم.

(٣٢) في سياق حديثه عن تعلمه في مدرسة الشويفات الارشالية، يذكر فريجة - المرجع المذكور، أن المدرسة المذكورة، كانت تعج بعدد من أبناء العائلات الميسورة في سورية وفلسطين ولبنان، إلا أن هؤلاء كانوا لا يتابعون الدروس مجدية لاهتمامهم بالمسائل السياسية (حركة فيصل). وأن الرهبان لم يهتموا لعدم الانضباط هذا (ص ٥٦).

(٣٣) في مقابلة في مع منسح الصلح تحت عنوان «منح الصلح بنذكر» - مجلة «المسيرة»، العدد (١٦) - نيسان - ابريل ١٩٨١.

- (٣٤) الراسي - المؤلفات، (١) (ص ١٠٢). ويمكن الاستنتاج، من الرواية التي يجمع الراسي عناصرها، أن آل الحمرا كانوا يستوطنون المنطقة منذ ما بعد الحملات الصليبية حتى معركة عين دارة (١٧١١)؛ حيث أعاد حيدر الشهابي توزيع الاقطاعات على العائلات التي أيدته، فكانت منطقة (الحمراء) من حصص الناحية... مما سبب الصراع المذكور وانقراض عائلة الحمرا أو تهجيرها إلى البقاع.
- (٣٥) عندما جاء الأهالي، مستطلعين أثناء بناء الجامعة، يعلنون ربيتهم وشكوكهم وعدم استساغتهم، عبر الحديث عن الجبان والحيات والضباع... التي تعيش في المكان، كان رد أحد الأميركيين عليهم بأنهم يتكفلون بالوحوش بينما قال بركات ربيع (وهو من المتعاونين مع الأميركيين على البناء) إنه يتكفل بطائفة الجن. الراسي - المؤلفات، (١) (ص ١١٠).
- (٣٦) يعدّ الراسي - المؤلفات - (١). (ص ١٦٨) - الأمكنة التي راج أن الجن يتواجد فيها، وهي: فرن في حلة الحمرا، البيت الذي كان مكان سينما الدورادو، إحدى الفيلات التي تحوّلت إلى محطة بنزين في الروشة. ويبدو من هذه السلسلة أن حضور الجن يروج في الأمكنة التي تخضع لتبدّل وتغيّر في وجهة استخدامها. والملاحظ أن هذا التبدل الذي يطرأ، يتقاطع في أنه من نتائج تحديث: (فرن، سينما، محطة بنزين...).
- (٣٧) استقطبت الجامعة للعمل فيها جماعات من كل لون وجنس: أرمن، مسيحي وادي النصاري في سورية، أرثوذكسي قرية الروم في جبيل. أما الأرثوذكسي الرأس بيروت، فلم يفهم لماذا جيء بكل هذه الحشود، وفسر ذلك بأنه رقة في أرثوذكسيته تطعّم البروتستنتي به. منح لصلح: «المسيرة» - المرجع المذكور.
- (٣٨) في مذكرات أنيس فريضة، «قبل أن أنسى» - المرجع المذكور. تبرز هذه المسألة، فبين كل سنة دراسة بقضيها فريضة في المعاهد المتنوعة والجامعة، يعود إلى قرينته وأهله معلناً حينه وانتهاءه. ولكن دون أن يتخذ هذا الاعلان طابعاً مأساوياً. كان الخروج - العودة إلى «عالم» القرية نتج عن شروط مكتملة متساوقة. وربما هذه المسألة ناتجة عن تدامج عالم الريف وعالم المدينة عند التجمع المسيحي بأكمله.
- (٣٩) في مطلع القرن الحالي دخلت الجامعة في حياة رأس بيروت. فصاروا يقولون: فان ديك ودورمان وبوست (أو «بسط» بلكنتهم المحلية). الراسي - المؤلفات، (١) (ص ١٠٨).
- (٤٠) يروي بعض معلمي رأس بيروت أن شاباً أصيب بألم مفاجيء فدفنه ذووه بعد أن لفظ أنفاسه. ولكن الدكتور بوست أرسل سراً من بأنه بجثة الشاب من القبر. وبعد أربعين يوماً على الحادث أرسل بوست بطلب والد الشاب الذي فوجى بابنه بلبس الزي الافرنجي وعوينات سوداء. الراسي - المؤلفات، (١) (ص ١٠٩).
- (٤١) قال الدكتور فان ديك لأهل أحد الشبان، بعد أن سمعته حية، يُستحسن أن تعطوه هذا الدواء حتى يسهل عملية الرقي التي قمم بها. أيضاً لقد طلب الأميركيون من الشيخ ناصيف البازجي أن ينظم لهم بعض الترانيم العربية على ألحان غربية... الراسي - المؤلفات، (١) (ص ١٠٨ - ١١١).
- (٤٢) طلب رجل، من سكان رأس بيروت، من فان ديك التوسط له لدى إدارة الجامعة لتخفيض رسم الانتساب، الذي كان مقداره (٥ ل. عثمانية)، قائلاً «إنني استطيع أن اشتري أحسن حمار في البلاد بهذا المبلغ. فقال له فان ديك: عندئذ يصير عندك حماران». وعندما تذرّ خادم فان ديك من كثرة الأشغال والحفلات قائلاً: «طاولات وماولات، كراسي ومراسي، صحنون ومحنون»، ردّ عليه فان ديك: «كفى. إني سأعفيك من نصف هذه الأعمال، أحضر أنت الطاولات والكراسي والصحنون واترك الباقي لي». الراسي - المؤلفات، (١) (ص ٢٣٦).
- (٤٣) منح الصلح - مرجع مذكور.
- (٤٤) المرجع نفسه.
- (٤٥) الراسي - المؤلفات، (٢) (ص ٢١٧).
- (٤٦) المرجع نفسه.
- (٤٧) يروي الراسي، أن بلدية صيدا كانت قد أنشأت مستراحاً (محطة) عاماً وسط مستديرة ساحة النجمة، يلجأ إليه الغرباء وعابرو السبيل، لقضاء حاجاتهم. ومنذ ثماني سنوات (أواسط الستينات تقريباً)، قررت وزارة السياحة بموافقة البلدية إلغاء المستراح وإقامة نصب فني مكانه. وعندما أزيح الستار عن النصب، تجمع الصيداويون وتساءلوا عن معناه، معلّنين: إنه قبر بدون باب. سفينة بدون شراع. مجموعة من الأحجار لا معنى لها... وحل الصيداويون على البلدية التي وافقت على تشويه مدخل مدينتهم. واستدعى المجلس البلدي مصممة

التمثال، وسألها عما يرمز إليه، فقالت إنه ينتمي إلى مدرسة الفن التجريدي، ويحتاج الناس إلى ثلاثين سنة حتى يفهمونه. وبعد الأخذ والرد انتصرت مفاهيم صيدا القديمة وتم تغليب حجارة النصب ووضعها في مكان آخر. أمّا سكان قرى منطقة صيدا فقد افتقدوا المستراح حيث كانوا يقضون بعض حاجاتهم. ووصف أحد شعراء الزجل منهم واقعة الحال، فقال:

«ترقيت يا بو سمرا وصرنا نقضيها برا
الحاضر أخرى من الماضي والقادم أخرى وأخرى»:

الراسي - المؤلفات. (٢) (ص ١٥٧) .

(٤٨) ذكر رضا بيك الصلح أهالي مرجعيون، عندما طلبوا منه التوسط بمجادنة طائفية بينهم وبين دروز منطقة مرجعيون، ذكرهم بمجادنة خان الزهرية في صيدا، عندما فك صاحب الخان حماراً لرجل من صيدا، وربط مكانه فرساً لرجل من المجديدة، فنشأ خلاف بين الرجلين وتآلب الصيادنة على المجدادنة وأهانوهم؛ فقدم هؤلاء شكاوى قاسية إلى مقام والي بيروت. الراسي - المؤلفات. (٢) (ص ٢٥٦) .

(٤٩) أما تمثال الشيخ ابراهيم البازجي على مدخل حي زقاق البلاط، والذي قالت الكاتبة الفرنسية كلارا كاندياني إنها لم تشاهد تمثالاً غيره في بيروت لأحد كتّاب القرن الماضي، وبالقرب منه إعلان مكتوب بخط عريض «يا قليل الشرف لا تبول هنا»؛ فقدمت نصيحة إلى اللبنانيين عبر مقالات نشرتها في الصحف الفرنسية، بأن يلغوا التمثال وينشئوا مكانه بيت خلاء، لكي يبدأوا بصعود السلم من أول درجاته. أما التمثال، فقد نقلته الحكومة فيما بعد إلى باحة وزارة التربية. الراسي - المؤلفات. (١) (ص ٢٢٥) .

(٥٠) في مدينة مرجعيون، قررت البلدية هناك هدم المنارة في ساحة البلدة التي يعود إنشاؤها إلى أكثر من نصف قرن، أي عهد قائمقام مرجعيون حمدي بيك الجلال سنة (١٩٠٨). وذلك تسهياً لمرور السيارات. وقال أحد الشبان تعليقاً: «المنارات لا يجوز أن تهدم، بل يجب المحافظة عليها، كرمز لإنارة الأذهان، لأنها كانت قد أنارت سبلنا بقنديل الكاز». إلا أن أحد الشيوخ أجاب: «بل يجب أن تهدم، لأنها تذكّرنا بمظالم العثمانيين، حيث شنقوا عليها أحد الرجال أماناً». الراسي - المؤلفات. (٢)، (ص ٢٦٨) .